

كلية الآداب واللغات

قسم الفنون

السنة أولى جذع مشترك فنون/ السداسي الأول

مقياس: السينما الصامتة

المحاضرة رقم 06 بعنوان:

"التعبيرية الألمانية وإرهاصات التجريب"

يُعبّر الفنان عن واقعه عبر منجزه الإبداعي، بحيث يغدو الوسيط التعبيري انعكاسا مباشرا لبنيته الذهنية وفضائه الوجداني. ومن ثم، لا يجد الفنان حريته القصوى إلا من خلال السينما التجريبية أو السينما الطليعة، التي تُؤسس لبناء لغوي جديد داخل الخطاب السينمائي، وفق منطق التجريب الذي يستكشف جوهر الفن وتداعياته الجمالية. ولم يكن حضور الحركة التعبيرية مقصورا على الأدب والفنون التشكيلية فحسب، بل امتدت تأثيراتها إلى السينما، خصوصا وأن التعبيرية السينمائية نشأت في أحضان التجربة التشكيلية التعبيرية الألمانية.

وقد مثل اعتماد السينما التعبيرية على أساليب التنافر البصري، والتكثيف، والإنفعال العنيف، والتشويه المقصود للصورة الفيلمية، دليلا على انتقال الفنان من موقع المتأمل إلى موقع الفاعل. فقد ارتكزت على منظورات محرفة، ومبالغة في تكبير وتضخيم الأشكال والألوان، وتشويه في الشخصية والديكور، بما

يهدف إلى انتزاع المتفرج من دائرة المؤلف إلى اللامألوف والجوهري. وبذلك، تكمن جمالية السينما التعبيرية في الغوص في الواقع من أجل اكتشاف جوهره الداخلي، اعتماداً على مركزية الصورة والشكل على حساب المضمون، مع منح المزاج النفسي للفنان والمتلقي أولوية كبرى في البناء الجمالي. وهذا ما مهد لظهور نزعة تستكشف السر الكامن خلف المظهر الخارجي للعالم، وهي إحدى السمات البارزة لدى مخرجي التعبيرية.

ويُعد فيلم 'عيادة الدكتور كاليغاري' سنة 1919 للمخرج 'روبرت واين'، علامة فارقة في نشأة السينما التعبيرية. إذ تميز بأسلوب بصري غير مألوف، وبمناظر داخلية وخارجية مشوهة، تفقد فيها المستطيلات توازئها، وتظهر الأسقف بزوايا حادة، والنوافذ المعقوفة، والجدران المائلة، والأشجار الملتوية، في تجسيد مادي صاخر لروح التعبيرية. وقد أسهم هذا الفيلم في ترسيخ مصطلح "الكاليغارية" في تاريخ السينما، نتيجة لارتباطه الوثيق بفن الرسم التعبيري وبالحركة الشعرية الألمانية آنذاك.

أحدث هذا التوجه تحولاً عميقاً في الذائقة البصرية، إذ أصبحت الديكورات المرسومة بخطوط مائلة وغير مستقرة، والأداء التمثيلي المبالغ فيه، والحضور القلق لوجوه الشخصيات، عناصر جوهريّة أسهمت في ميلاد التيار التعبيري، وصولاً إلى تأثيره لاحقاً فيما عُرف بـ الفيلم الأسود.

لقد جاءت السينما التعبيرية بوصفها لغة تعتمد الأشكال والألوان والأحجام والأضواء والظلال ركائز أساسية لبناء العمل الفني، وفق رؤية تنقل الانفعال الداخلي للفنان إلى المتلقي. ويُعد روبرت واين من أبرز من كرسوا هذه النزعة عبر رؤيته الإخراجية القائمة على الخيال البصري وتركيزها على البعد النفسي للأشكال، بما في ذلك حضور المناظر القوطية والفضاءات المعتمة والظلال المركبة.

شهد القرن العشرون بروز حركات فنية متلاحقة أحدثت تحولات جذرية في الفكر الأوروبي، خاصة في مجال الفن، حيث تحرر الفنان من مبدأ المحاكاة واتجه نحو التجديد والإبداع. فارتبط الفن التشكيلي في بداياته بالواقع المرئي، لكنه سرعان ما تحول نحو بناء عالم جديد قائم على الأشكال الهندسية المتنوعة، ما أسس لظهور الحركة التكعيبية التي رفضت تمثيل الطبيعة كما هي، واتجهت إلى تفكيكها وإعادة تركيبها عبر

مكعبات وكُرات ومخروطيات وصيغ هندسية أخرى، أثرت بدورها في العمارة، والتصوير، وهندسة المناظر السينمائية.

وفي هذا السياق، يشير الناقد الفرنسي مارسيل مارتن في مجلة سينيا revue de cinéa سنة 1921 إلى فيلم 'من الفجر إلى منتصف الليل' للمخرج كارل هاينز مارتن بوصفه أول تجربة سينمائية فرنسية تجمع بين التعبيرية والتكعبية، حيث تُضخم الأشياء وتُصغر بشكل مفرط، وتُقلب الشوارع رأساً على عقب، وتتجلى حالات الجنون والصراخ، بما يجعل interiorité البطل ماثلة في الأشياء والفضاءات المحيطة به.

كما طور المخرج هاينز ريختر توجها بصريا تجريديا يقوم على الإيقاع والقطع والزمن، كما في فيلمه 'الإيقاع 21' سنة 1921 وفيلم 'التضخم' سنة 1927، حيث غدت الحركة التجريدية للأشكال أساسا لبناء جماليات تعتمد على المنظور الحسي والعلاقات الموسيقية البصرية.

وفي إطار التجريب أيضا، قدم الفنان السويدي فيكنغ إنجلينغ (1917-1916) أعمالا تمزج بين التناغم التشكيلي والموسيقي، وتُعد من أوائل المحاولات التي مهدت لظهور السينما التجريدية التي عرضت في «جماعة نوفمبر» ببرلين سنة 1920، بمشاركة فناني الباوهاوس المهتمين بالتجريب البصري.

ولم يقتصر تأثير الحركات الفنية على التعبيرية فحسب، بل برز أيضا المخرج فريتز لانغ الذي طور نموذجا سينمائيا يمزج بين التعبيرية والإضاءة والمونتاج، وتجلّى ذلك في أعماله مثل 'الدكتور مابوس' (1922)، و'موت زغفريد' (1924)، وصولا إلى تحفته الخالدة فيلم 'ميتروبوليس' (1927)، التي تُعد أحد أهم إنجازات السينما العالمية بفضل رؤيتها الهندسية والخيالية التي جمعت بين الفانتازيا والنقد الاجتماعي.

وفي مسار مواز، جاءت السريالية لتُعلن تحرر الفن من القيود الأخلاقية والاجتماعية، ولتجعل من الحلم واللاوعي جوهرًا للعمل الإبداعي. وقد شكّل فيلم 'كلب أندلسي' (1926) للمخرج لويس بونويل لحظة فارقة في تاريخ الإخراج السريالي، بما يحمله من صدمة ورعب ولا منطق، مستندا إلى نظريات فرويد في الحلم واللاوعي، وإلى فلسفة 'أندريه بريتون' التي جعلت الذات مركزا للفعل الإبداعي.

وبذلك، شكلت هذه الحركات: التعبيرية، التكعيبية، التجريدية، الرمزية والسريالية، الأسس النظرية والجمالية التي قامت عليها سينما الطليعة، وساهمت في تطوير خطاب سينمائي جديد يقوم على التجريب، وتفكيك المؤلف، والبحث عن جوهر الرؤية الإنسانية في علاقتها بالعالم.

المكتبة البيبليوغرافية:

*Marie Thérèse journot, Le vocabulaire du cinéma, paris.

*Antoine Gaudin, L'espace cinématographique ' esthétique et dramaturgie'.

*جي أنبال، المدارس الجمالية الكبرى في السينما العالمية، تر: مي التلمساني.

*ديفيد روبنسون: تاريخ السينما العالمية 1895/1980، ترجمة: إبراهيم قنديل.